مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (٤)، العدد (١)، ص ص ١٦٥-٢١٦، (يناير ٢٠١١م/محرم ١٤٣٢هـ)

حديث "بُعثتُ بِجَوامِعِ الْكَلِم" دلالاته وأسراره البلاغية

د. عبدالعزيز بن صالح العمار
الأستاذ المشارك في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي
كلية اللغة العربية . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
aa2008ss@gmail.com

(قدم للنشر في ١٤٣١/٤/٧هـ ؛ وقبل للنشر في ١٤٣١/٩/١٠هـ)

ملخص البحث. بدأت هذه الدراسة بمقدمة ذكرتُ فيها أهمية الموضوع، وأسبابَ اختياره، وأشرتُ فيها إلى أن حديث الدارسة، ومحور البحث وهو قوله– عليه الصلاة والسلام – : "بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدِي"[١]

وفي رواية أخرى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم "أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ الْبَارِحَةَ إِذْ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ حَتَّى وُضِعَتْ فِي يَدِي".[٢] بحاجة إلى دراسة بلاغية، ووقفات تأملية؛ لبيان ما احتواه من إشارات، ولبيان المراد به، مبيناً في الوقت نفسه طرافة الموضوع وجدته، وما يتميز به، لكون الحديث فيه عن بلاغة الرسول ﷺ سيكون من خلال حديثه – عليه الصلاة والسلام – عن منطقه، وما تميز به من الفصاحة والبلاغة، وعمَّا خصه به ربه ومولاه – عزَّ وجل – من جوامع الكلم وفواتحه وخواتمه.

وقد جاء البحث في مبحثين: المبحث الأول: بعنوان: معاني "جوامع الكلم"، ذكرتُ فيه المراد بها، والخلاف في تحديدها، والقول الراجح في ذلك، وأسباب ترجيحه. وأما المبحث الثاني، فقد كان بعنوان:

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، رقم الحديث: ٢٩٧٧.
(٢) صحيح البخاري: كتاب التعبير، باب رؤيا الليل، رقم الحديث: ٦٩٩٨ .

وقفات تأملية مع حديث " بُعثتُ بجوامع الكلم"، وقد أطلت الوقوف مع هذا المبحث، ذكرتُ فيه سبع وقفات مهمة من دلالات الحديث، وأسراره البلاغية.

ثم ختمت الدراسة بخاتمة اشتملتْ على أبرز النتائج التي خرجتُ بها من هذه الدراسة، والوصايا التي أوصيتُ بها في نهاية هذه الدراسة. ثم ذيلتُ هذه الدراسة بثبت للمصادر والمراجع التي تم الرجوع إليها، والإفادة منها في كتابة هذا البحث.

مقدمة

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً أما بعد:

فإن الحديث عن بلاغة الرسول – عليه الصلاة والسلام – حديث شيق ماتع، يبدأ ولا ينتهي، تتسابق فيه الكلمات، وتنثال على القلم انثيالا علها أن تجد مكانا لها في صفحة البحث، لتنال شرف الحديث عن بلاغة المصطفى – عليه الصلاة والسلام–، والإبانة عنها.

وما أكثر ما تحدث العلماء قديما وحديثا عن بلاغته – عليه الصلاة والسلام–، وبيان ما تميز به منطقه، وكم هي الكتب التي أُلفت في هذا المجال، والمقالات التي نشرت في الحديث عن بلاغة المصطفى ﷺ.

بيد أن الجديد في هذه الدراسة أن الحديث عن بلاغة الرسول ﷺ سيكون من خلال حديثه هو – عليه الصلاة والسلام – عن منطقه، وما تميز به من الفصاحة والبلاغة، وعمَّا خصه به ربه ومولاه – عزَّ وجل – من جوامع الكلم وفواتحه وخواتمه، وذلك في قوله – عليه الصلاة والسلام –: " بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا اَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الاَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدِي"[٣]، وفي رواية أخرى عَنْ اَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم " أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَمَا اَنَا نَائِمٌ الْبَارِحَةَ اِذْ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الاَرْضِ حَتَّى وُضِعَتْ فِي يَدِي".[٤]

---

(٣) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، رقم الحديث: ٢٩٧٧

(٤) صحيح البخاري: كتاب التعبير، باب رؤيا الليل، رقم الحديث: ٦٩٩٨ .

فالموضوع جديد وجدير بالكتابة فيه، والإبانة عنه، فلم أجد في حدود علمي واطلاعي دراسة تتناول هذا الحديث بالبحث والدراسة، وتتجلى أهمية هذا الموضوع، أنه محدد المعالم بداية وانتهاء، فسيكون هذا الحديث محور هذه الدراسة ولبُّها، والمنطلق الذي سأنطلق منه، وأعيش في رحابه، وسأغوص في دلالاته، والنظر في أبعاده البلاغية والبيانية.

وقد قصرتُ هذه الدراسة على هذا الحديث؛ للنظر في معانيه ومضامينه، وما تضمنه من دلالات وإشارات وقد جاء اختياري لهذا الموضوع؛ لأهمية هذا الحديث، وعظيم منزلته، فهو يتحدث عن أمر عظيم، حديث يحمل في طياته الخصائص البيانية التي خُصَّ بها رسول الله ﷺ، وغيرها من النعم والمنن التي خصه ربه بها، وبسببها فضُل على الأنبياء، والناس جميعاً، ولذا فإن عظمة هذا الحديث وبلاغته تليق بعظمة هذا الرسول ﷺ، وتتوافق مع مكانته، ففي هذا الحديث من البلاغة والبيان ما يختص بها، وتميزه عن غيره؛ لاختصاصه بالحديث عن رسول الله ﷺ، ومنزلته البيانيه، التي تمير بها، وافتخر فيها؛ لقناعتي التامة أن للموضوع أثراً في انتقاء الألفاظ، وفي تنوع الأساليب البيانية؛ للتعبير عن المعنى المراد، ولإبرازه في أبهى حلة، وأجمل صورة.

وقد صدَّرتُ هذه الدراسة بمقدمة، ذكرتُ فيها أهمية الموضوع، وأسبابَ اختياره، وقد جاء البحث في مبحثين، المبحث الأول بعنوان: دلالات "جوامع الكلم"، ذكرتُ فيه المراد بها، والخلاف في تحديدها، والقول الراجح في ذلك، وأسباب ترجيحه. وأما المبحث الآخر، فقد كان بعنوان: وقفات تأملية مع حديث "بُعثتُ بجوامع الكلم"، وقد أطلت الوقوف مع هذا المبحث، وقد ذكرتُ فيه سبع وقفات مهمة من دلالات الحديث، وأسراره البلاغية، ثم ختمت البحث بخاتمة

تضمنت أبزر النتائج التي أمكن الاهتداء إليها ، والوصول إليها في هذا البحث ، والوصايا التي أوصيت بها في نهاية هذه الدراسة.

والله أسأل أن أُوفق في هذه الدراسة ، وأن أُهدى فيها إلى وجه الحق والصواب ، وأن يجنبني الزلل والتعصُّب ، والقول فيما لا أحسنه . فإن وُفقتُ إلى ما أريد فذلك فضل منه — سبحانه — وتفضل ، وإن كانت الأخرى فمن نفسي والشيطان ، وحسبي أني بذلتُ وسعيتُ ، والله ولي التوفيق.

المبحث الأول: دلالات جوامع الكلم

سأتحدث في هذا المبحث عن المراد بجوامع الكلم وفواتحه ، وبيان معناها ؛ لكي نعرف الوصف الذي أُعطيه نبينا ﷺ في منطقه ، وبُعث به ، وافتخر به وشرف على سائر الخلق أجمعين.

تدل مادة "جمع" - كما يذكر ابن فارس — على تضام الشيء وجمعه[٥] ، كما تدل — أيضاً - على جمعه بعد تفرقة له وشتات.[٦]

فهذا هو المعنى اللغوى لهذه اللفظة ، وقد جاء معنى " جوامع الكلم" منبثقاً من هذه التعريفات اللغوية ، ومرتبطاً بها ، يدل على ذلك قول السندي في بيانه للمراد بجوامع الكلم ، يقول : «أي الكلم الجامع من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والجوامع جمع جامعة»[٧] ، فالجوامع جمع جامع ، والجامعة اسم فاعل من جمعت فهي

---

(٥) انظر: مادة: جمع، معجم مقاييس اللغة، لابن فارس.

(٦) انظر: مادة: جمع، لسان العرب، لابن منظور.

(٧) شرح سنن النسائي: ٣/٦، للإمام أبي الحسن للسنندي .

جامعة، كما يُقال في المذكر جمع فهو جامع[٨]، وأما "الكلم" فهو جمع كلمة، والمراد به الكلام قليل اللفظ، كثير المعاني.[٩]

وقد ذكر ابن الأثير مفاتح الكلم، وبيِّن المراد بها أتم بيان، يقول: أخبر — عليه الصلاة والسلام — أنه أُوتي مفاتح الكلام، وهو ما يسر الله له من البلاغة و الفصاحة، والوصول إلى غوامض المعاني، وبدائع الحكم، ومحاسن العبارات والألفاظ التي أُغلقت على غيره وتعذرت، ومن كان في يده مفاتيح شيء مخزون سهل عليه الوصول إليه».[١٠]

ولذا ومن خلال ما تقدم فإن المراد بـ"جوامع الكلم" أنها «عبارات موجزة، حكيمة تتضمن كل عبارة منها معاني كثيرة مع الوفاء بالمعنى الذي تتضمنه»[١١]، يدل على هذا المعنى ويؤكده قول ابن حجر، «وحاصله أنه - عليه الصلاة والسلام - كان يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ، الكثير المعاني».[١٢]

ومن معانيها — أيضاً — كما يذكر العيني أن المراد بها: «الكلمة الموجزة لفظاً، المتسعة معنى: يعني يكون اللفظ قليلاً، والمعنى كثيراً»[١٣] ولذا ففي هذا التعريف: «الحث على استخراج تلك المعاني، وتبين تلك الدقائق المودعة فيها»[١٤]

---

(٨) انظر: المثل السائر: ٧٨/١، لابن الأثير .

(٩) الإعجاز والإيجاز: ١٦، لأبي منصور الثعالبي، المطبعة العمومية، القاهرة، ط: الأولى: ١٨٧٩م .

(١٠) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤٠٧/٣، لمجد الدين ابن الأثير.

(١١) بلاغة الرسول: ٥٠، د. علي محمد حسن العماري.

(١٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ٢٦١/١٣، لابن حجر العسقلاني .

(١٣) عمدة القارئ: ٥/١٢، للعيني .

(١٤) المصدر السابق: ٥/١٢ .

وقد تحدث ابن الأثير عن المراد بـ" جوامع الكلم" ، فذكر معناها ، وبيَّن أقسامها ، يقول : «والمراد بذلك أنه ﷺ أُوتي الكلم الجوامع للمعاني ، وهو عندي ينقسم قسمين :

القسم الأول : هو ما استخرجته ، ونبهتُ عليه ، ولم يكن لأحد فيه قول سابق ، وهو أن لنا ألفاظاً تتضمن من المعنى ما لا تتضمنه أخواتها ، مما يجوز أن يُستعمل في مكانها ، فمن ذلك ما يأتي على حكم المجاز ، ومنه ما يأتي على حكم الحقيقة.

أما ما يأتي على حكم المجاز فقوله ﷺ يوم حنين " الآن حمي الوطيس" وهذا لم يُسمع من أحد قبل رسول الله ﷺ ، ولو أتينا بمجاز غير ذلك في معناه ، فقلنا : " استعرت الحرب" لما كان مؤدياً من المعنى ما يؤديه " حمي الوطيس" ، والفرق بينهما : أن الوطيس هو التنور ، وهو موطن الوقود ، ومجتمع النار ، وذلك يخيل إلى السامع أن هناك صورة شبيهة بصورته في حميها وتوقدها ، وهذا لا يوجد في قولنا : " استعرت الحرب" ، أو ما جرى مجراه...

القسم الثاني : فالمراد به : الإيجاز ، الذي يُدل به بالألفاظ القليلة على المعاني الكثيرة ، أي أن ألفاظه ﷺ جامعة للمعاني المقصودة على إيجازها واختصارها ، وجلُّ كلامه جارٍ هذا المجرى ، فلا يحتاج إلى ضرب الأمثلة به...

فإن قيل : فما الفرق بين هذين القسمين اللذين ذكرتها ، فإنهما في النظر سواء؟ قلت في الجواب : إن الإيجاز هو أن يُوتى بألفاظ دالة على المعنى ، من غير أن تزيد على ذلك المعنى ، ولا يُشترط في تلك الألفاظ أنها لا نظير لها ، فإنها تكون قد اتصفت بوصف آخر خارج عن وصف الإيجاز ، وحينئذ يكون إيجازاً وزيادة ، وأما هذا القسم الآخر فإنه ألفاظ أفراد في حسنها لا نظير لها ، فتارة تكون موجزة ، وتارة لا تكون

موجزة، وليس الغرض منها الإيجاز، وإنما الغرض مكانها من الحسن الذي لا نظير لها فيه، ألا ترى إلى قول أبي تمام: "وطن النهى" فإن ذلك عبارة عن الرأس، ولا شك أن الرأس أوجز؛ لأن الرأس لفظة واحدة، و"وطن النهى" لفظتان؛ إلا أن "وطن النهى" أحسن في التعبير عن الرأس من الرأس، فبان بهذا أن أحد هذين القسمين غير الآخر»(١٥)

وقد ذكر العلماء كثيراً من المقولات والإشارات في الدلالة على المعنى المراد بـ"جوامع الكلم" الذي أُعطيه - عليه الصلاة والسلام - وبُعث به، وعند الوقوف مع تلك المقولات، وإمعان النظر فيها نجد أنها تعود إلى قولين اثنين لا ثالث لها.

القول الأول: أن المراد بـ"جوامع الكلم": القرآن الكريم، وممن رأى هذا الرأي ابن بطال، يقول في شرحه لهذا الحديث: «وأما "جوامع الكلم" فهو القرآن؛ لأنه تأتي منه الآية على معانٍ مختلفة، ولها تأويلات مختلفة... يدل على ذلك قوله - تعالى - ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾(١٦) فهذا يدل على أن القرآن جوامع، وبقوله ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾(١٧)، فلو أن هذا نزل في تدبير الدنيا والآخرة لكفاها».(١٨)

---

(١٥) المثل السائر: ٨٧/١، لابن الأثير.

(١٦) الأنعام: ٣٨.

(١٧) الأعراف: ١٩٩.

(١٨) شرح صحيح البخاري: ١٤٣/٥، لابن بطال، تحقيق أبي تميم ياسر إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ.

وكذلك البيهقي في كتابه " شعب الإيمان" يرى هذا الرأي، يدل على ذلك شرحه لبيان المراد بـ: " جوامع الكلم"، يقول: - بعد أن بيَّن المراد بجوامع الكلم: ((والظاهر أنه أراد القرآن الكريم، يدل على ذلك سياق الحديث)).[١٩]

وكذلك الحافظ في شرحه لجامع الترمذي، يقول: ((جوامع الكلم: القرآن؛ فإنه تقع فيه المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة)).[٢٠] وغيرهم كثير أخذوا بهذا القول، وذهبوا إلى هذا المعنى في بيان المراد بجوامع الكلم.[٢١]

وقد أخذوا بهذا المعنى اعتماداً على لفظة "بُعثتُ" الواردة في أكثر روايات هذا الحديث، يدل على ذلك قول ابن حجر: ((المراد بـ" جوامع الكلم" القرآن الكريم، بقرينة "بُعثتُ"، والقرآن هو الغاية في إيجاز اللفظ، واتساع المعاني)).[٢٢]

ولا يخفى وجاهة هذا القول وقوته؛ فقد بلغ القرآن الغاية في الإيجاز، وصل معه حدَّ الإعجاز.

القول الثاني في بيان المراد بـ" جوامع الكلم" الذي أوتيه - عليه الصلاة والسلام - هو: بيانه ومنطقه ﷺ، يدل على ذلك قول البخاري: ((بلغني أن "

---

(١٩) شعب الإيمان: ١٦٠/٢، للبيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ . .

(٢٠) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: ١٥٠/٥، للإمام الحافظ أبي العلاء محمد بن عبدالرحمن المباركفوري، اعتنى به: علي محمد معوض، و عادل أحمد عبدالجواد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٩ هـ . .

(٢١) وممن أخذ بهذا القول: ابن حجر العسقلاني، انظر: فتح الباري: ٢٦١/١٣، و: النووي، انظر: شرح صحيح مسلم: ٧/٥، والهروي، انظر: شرح سنن النسائي: ٢/٦، للإمام السندي، وغيرهم .

(٢٢) فتح الباري: ٢٦١/١٣ .

جوامع الكلم" أن الله – عزَّ وجل – يجمع له الأمور الكثيرة التي كانت تُكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد أو الاثنين)).[٢٣]

وقوله – كذلك – في موضع آخر، يقول: ((وحاصله أنه – عليه الصلاة والسلام – كان يتكلم بالقول الموجز، القليل اللفظ، الكثير المعاني)).[٢٤]

وكذلك قول النووي، يقول في شرحه لهذا الحديث: ((وكلامه ﷺ كان بالجوامع قليل اللفظ، كثير المعاني)).[٢٥]

وقد أشار إلى هذا المعنى وقرَّره الخطابي في قوله: ((واعلم أن الله لما وضع رسوله ﷺ موضع البلاغة من وحيه، ونصبه منصب البيان لدينه اختار له من اللغات أعذبها، ومن الألسن أفصحها وأبينها، ثم أمده بجوامع الكلم التي جعلها ردءاً لنبوته، وعلماً لرسالته؛ لينظم في القليل منها علم كثير؛ ليسهل على السامعين حفظه، ولا يؤودهم حمله، ومن تتبع الجوامع من كلامه لم يعدم بيانها)).[٢٦]

وكذلك قول ابن رجب في مقدمة كتابه " جامع العلوم والحكم" في حديثه عن المراد بـ" جوامع الكلم"، يقول: ((ما هو في كلامه – عليه الصلاة والسلام – ، وهو منتشر موجود في السنن المأثور عنه ﷺ)).[٢٧]

---

(٢٣) صحيح البخاري: كتاب التعبير، باب: المفاتيح في اليد، رقم الحديث: ٧٠١٣ .

(٢٤) فتح الباري: ٢٦١/١٣ .

(٢٥) شرح صحيح مسلم: ٧/٥ .

(٢٦) غريب الحديث: ٦٤/١، للخطابي١١٤ . غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي، تحقيق:عبدالكريم إبراهيم العزباوي، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ١٤٠٢هـ . .

(٢٧) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الحكم: ١٢/١ .

وقد أشار إلى هذا المعنى – كذلك – السيوطي في شرحه " لسنن النسائي" ، يقول : « وكذلك كان الرسول ﷺ يتكلم بألفاظ يسيرة ، تحتوى على معانٍ كثيرة ».(٢٨)

وبعد فهذا أبرز ما قيل في بيان المراد بـ" جوامع الكلم" ، ولا يخفى أن بين هذين القولين ارتباطاً وثيقاً ، كما أن كل واحد منها متعلق بالآخر ، منبثق عنه ، ومكمل له ، إلاَّ أني أميل إلى القول الثاني وأرجحه ، وثمة عدة أسباب تجعلني أرجحه وآخذ به ، ومن تلك الأسباب ما يأتي :

أولاً : أن أصحاب القول الأول حين ذكروا أن المراد بـ"جوامع الكلم" هو القرآن الكريم ، نجد أنهم يتبعون ذلك بالحديث عن بيانه ﷺ ، وما خُصَّ به منطقه من جوامع الكلم وفواتحه ، فقد ورد ذلك عن ابن حجر ، والنووي ، والسندي ، والسيوطي ، وابن رجب الحنبلي ، وكذلك شارح جامع الترمذي ، البيهقي ، وغيرهم.(٢٩)

ثانياً : إشادة العلماء قديماً وحديثاً بمنطقه – عليه الصلاة والسلام – ، وإشارتهم إلى ما تميز به من الإيجاز والإحكام ، وأنه أوتي جوامع الكلم وفواتحه ، حتى صار ذلك سمة له في منطقه ، وسمة بارزة من خصائص شمائله ، ومن ذلك قول القاضي عياض : « وأما فصاحة اللسان ، وبلاغة القول فقد كان – عليه الصلاة والسلام – من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذي لا يُجهل ، سلامة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معانٍ ، وقلة تكلف ، أوتي جوامع الكلم ، وخُص ببدائع الحكم ، وعُلِّم ألسنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة بلسانها ، ويحاورها بلغتها وبيانها في منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه

---

(٢٨) السيوطي في شرحه لسنن النسائي: ٣/٦ .

(٢٩) انظر: فتح الباري: ٢٦١/١٣؛ شرح صحيح مسلم: ٧/٥؛ شرح سنن النسائي: ٢/٦، وجامع العلوم والحكم : ١٢/١، وشعب الإيمان: ١٦٠/٢، وغيرهم

في غير موطن عن شرح كلامه، و تفسير قوله، من تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه)).[٣٠]

إذن فهذا منطقه – عليه الصلاة والسلام – ، وهذا ما تميز به، وتلك إشارة العلماء إليها، وإشادتهم بها، فقد أوتي ﷺ جوامع الكلم، فكان ذلك خاصية من خصائصه، وسمة من سمات منطقه وبيانه، وقد أكد هذا المعنى، وأشار إليه ابن القيم في معرض حديثه عن منطقه – عليه الصلاة والسلام – ، يقول: ((وكان ﷺ أفصح خلق الله، وأعذبهم كلاماً، وأسرعهم أداء، وأحلاهم منطقاً، حتى إن كلامه ليأخذ بالقلوب، ويسبي الأرواح، ويشهد له بذلك أعداؤه، وكان إذا تكلَّم تكلَّم بكلام مُفصَّل مُبَيَّنٍ، يعدُّه العاد، ليس بِهَذٍ مسرع لا يُحفظ، ولا منقطع، تخلَّله السكتات بين أفراد الكلام، بل كان هديه فيه أكمل الهدي)).[٣١]

وقد ذكر الماوردي في معرض حديثه عن خصائص رسول الله ﷺ وفضائله، فذكر أن مما خُصَّ به رسول الله وتميز به هو: الكلم الجامع، فذكر بيانها، والمراد بها، في قوله: ((فضَّل الله نبيه على غيره من الأنبياء: بأن أعطاه جوامع الكلم، فكان – عليه الصلاة والسلام – يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ، الكثير المعاني، أعطاه مفاتيح الكلام، وهو ما يسر له من البلاغة والفصاحة، والوصول إلى غوامض المعاني، وبدائع الحكم، ومحاسن العبارات، والألفاظ التي أُغلقت على غيره، وتعذرت عليه)).[٣٢]

---

(٣٠) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ٥٦/١، للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة.

(٣١) زاد المعاد: ١٨٢/١، لابن القيم الجوزية .

(٣٢) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤٠٧/٣، لمجد الدين ابن الأثير.

وممن ذكر ذلك من خصائصه وشمائله ابن كثير، يقول: «كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، يتكلم بجوامع الكلم، فصل فلا فضول ولا تقصير، دمت ليس بالجافي ولا المهين».(٣٣)

كما أن ثمة إشارات وإشادات من البلاغيين بمنطقه – عليه الصلاة والسلام – وأنه أوتي جوامع الكلم، وحاز السبق في وجازة الكلام واختصاره، وفي بيان علو كعب منطقه، وتميزه في التعبير عن المعاني بأبلغ عبارة وأوجزها وأقواها، فكان يعبر عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة تدل على المراد، وتعبر عنه أيما تعبير، ومن ذلك: ابن رشيق القيرواني، فقد تحدث عن منطقه – عليه الصلاة والسلام - ، وما تميز به من الإيجاز والإحكام، فقد أورد جملاً كثيرة من شواهد الإيجاز في كلامه، ثم ختم ذلك بقوله: «ومثل هذا كثير في كلامهﷺ، ومن أولى منه بالفصاحة، أو أحق بالإيجاز، وقد قال: أُعطيت جوامع الكلم».(٣٤)

ولم يقف الأمر عند منطقه ﷺ، وما تميز به من جوامع الكلم، بل تجاوز ذلك، بأن دعا إلى الأخذ بجوامع الكلم في الحديث، وحببه على غيره من الكلام والأساليب، يدل على ذلك قول ابن رجب الحنبلي في معرض حديثه عن منطقه – عليه الصلاة والسلام - ، وشرحه لجملة من جوامع كلمه، يقول: وقد ذكرنا في أول الكتاب أن النبيﷺ بُعث بجوامع الكلم، وكان – عليه الصلاة والسلام – يعجبه جوامع الكلم، ويختاره على غيره من الذكر، كما في صحيح مسلم عن ابن عباس عن

---

(٣٣) شمائل الرسول: ٥٢، لابن كثير، تحقيق مصطفى عبدالواحد، مطبعة عيسى البابي، القاهرة، ١٣٨٦هـ . .
(٣٤) العمدة : ٤٣٦/١، لابن رشيق القيرواني .

جويرية بنت الحارث أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة، فقال: مازلت على الحال التي فارقتك عليها، قالت: نعم، فقال النبي ﷺ لقد قلتُ بعدك: أربع كلمات ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن، سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته».[٣٥]

وكذلك كان النبي ﷺ يعجبه من الدعاء جوامعه، ففي سنن أبي داود عند عائشة – رضي الله عنها – قالت: (كان النبي ﷺ يعجبه الجوامع من الدعاء، ويدع ما دون ذلك).[٣٦]

بل ذكر – عليه الصلاة والسلام – أن من أمارات فقه الخطيب: قصر خطبه، وذلك في قوله: "إن طول صلاة الرجل، وقصر خطبته مئنة من فقهه، فأطيلوا الصلاة، واقصروا الخطبة، وإن من البيان لسحرا".[٣٧]

وقد ذكر الإمام الصنعاني بيان ذلك وعلته في قوله: «وإنما كان قصر الخطبة علامة على فقه الرجل؛ لأن الفقيه هو المطلع على حقائق المعاني، وجوامع الألفاظ، فيتمكن من التعبير بالعبارة الجزلة المفيدة، وذلك كان من تمام هذا الحديث: فأطيلوا الصلاة، وقصروا الخطبة، وإن من البيان لسحراً، فشبه الكلام العامل في القلوب الجاذب للعقول بالسحر؛ لأجل ما اشتمل عليه من الجزالة، و تناسق الدلالة، وإفادة المعاني الكثيرة... ولا يقدر عليه إلا من فقه في المعاني، وتناسق دلالتها، فإنه يتمكن من

---

(٣٥) صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم، رقم الحديث:٢٧٢٦ .

(٣٦) سنن أبي داود: رقم الحديث: ٤٨٢ .

(٣٧) صحيح مسلم: كتاب الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، رقم الحديث: ٨٦٩ .

الإتيان بجوامع الكلم، وكان ذلك من خصائصه — عليه الصلاة والسلام — فإنه أوتي جوامع الكلم)).[٣٨]

وقد أشار الإمام الشوكاني إلى هذا المعنى وأكده بقوله: ((وإنما كان إقصار الخطبة علامة من فقه الرجل؛ لأن الفقيه هو المطلع على جوامع الألفاظ، فيتمكن بذلك من التعبير باللفظ المختصر عن المعاني الكثيرة)).[٣٩]

إذن فقد كانت هذه الصفة طبعاً وخلقاً له — عليه الصلاة والسلام — وخاصية عُرف بها واشتهر، فصارت له سمة وطبعاً، ولذا فقد أشاد بها العلماء، وأشاروا إليها، بل اقتفوا أثرها، ودعوا إليها، يدل على ذلك قول القاضي عياض: ((أما كلامه ﷺ المعتاد، وفصاحته المعلومة، وجوامع حكمه المأثورة فقد ألف الناس فيها الدوواين، وجُمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب، ومنها ما لا يوازي فصاحة، ولا يباري بلاغة)).[٤٠]

ومن تلك الكتب على سبيل المثال لا الحصر: كتاب " الإيجاز وجوامع الكلم من السنن المأثورة" للحافظ أبي بكر السني، وكتاب " الشهاب في الحكم والآداب" للقاضي أبي عبدالله القضاعي، جمع فيه جوامع كلمه ﷺ ، كما أشار الخطابي في صدر كتابه " غريب الحديث" إلى جملة من جوامع كلمه – عليه الصلاة والسلام –، ومن الكتب: " الأربعين النووية" لأبي يحي زكريا النووي، وكذلك كتاب"

---

(٣٨) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام:١٦٩/٣، للإمام الصنعاني، تحقيق محمد صبحي، دار ابن الجوزي، الدمام، ط: الأولى، ١٤١٨هـ . .

(٣٩) نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار: ٣٧٩/٤، للإمام الشوكاني، تحقيق طارق عوض الله، دار ابن القيم، الرياض، ط: الأولى: ١٤٢٦هـ .

(٤٠) الشفا بتعريف حقوق المصطفى:

جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم" لابن رجب الحنبلي، وغيرها كثير.[٤١]

المبحث الثاني: وقفات تأملية مع حديث أُعطيت جوامع الكلم

سأقف في هذا المبحث مع الحديث نفسه وقفة تأملية؛ لسبر غوره، والغوص في أعماقه؛ لأنعام النظر فيه تأملا وتدبراً؛ من أجل الخروج بدلالات مهمة، ونتائج مفيدة من الحديث، ومن أجل تحقيق هذه الغاية على أتم وجه وأكمله لا بد من الوقوف مع روايات الحديث كلها، وأن تكون تحت النظر والتأمل والدراسة، وهذا الأمر من الأهمية بمكان من أجل تحقيق هذه الغاية والوصول إلى أفضل النتائج وأصحها.

الوقفة الأولى: الوقفة مع روايات الحديث كلها

وهذا الأمر من الأهمية بمكان في البلاغة النبوية، وفي التعامل مع كلام رسول الله ﷺ، وللدكتور يوسف القرضاوي كتاب مهم في بابه، تحدث فيه عن كثير من القضايا والأسس في التعامل مع النصوص النبوية، في كتابه " المدخل لدراسة السنة النبوية"، وقد أشار فيه إلى هذه الحقيقة وقررها في مقدمة الكتاب في قوله: ((ومن هنا ينبغي لمن يتعامل مع السنة النبوية لكي ينفي عنها انتحال المبطلين، وتحريف الغالين أن يتثبت بعدة أمور تعتبر مبادئ أساسية في هذا المجال)).[٤٢]

ثم شرع في ذكرها، وبيان أهميتها وعلوقها بالبحث النبوي، ومما ذكره وله صلة وثيقة بموضوعنا هنا: جمع الأحاديث الواردة في الموضوع الواحد، ثم تحدث عن

---

(٤١) انظر: جامع العلوم والحكم: ٥٦/١ .

(٤٢) المدخل لدراسة السنة النبوية: ٩٩، د. يوسف القرضاوي .

أهمية هذا الأمر، وكشف عن غايته، يقول: «ومن اللازم لفهم السنة فهماً صحيحاً أن نجمع الأحاديث الصحيحة في الموضوع الواحد؛ بحيث يُرد متشابهها إلى محكمها، ويُحمل مطلقها على مقيدها، ويُفسر عامها بخاصها، وبذلك يتضح المعنى المراد منها ولا يضرب بعضها ببعض، وإذا كان من المقرر أن السنة تفسر القرآن الكريم وتبينه بمعنى أنها تفصِّل مجمله، وتفسر مبهمه، وتخصص عمومه، وتُقيد إطلاقه فأولى ثم أولى أن يُراعى ذلك في السنة بعضها مع بعض».(٤٣)

ولكامل اقتناعي بهذا القول وأهميته، ولتطبيقه على حديث الدراسة في هذا المبحث، فسأذكر روايات الحديث كلها في هذا المبحث؛ للنظر في دلالاتها وسياقاتها، وللنظر – كذلك – في أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية، ومن أجل إدراك الفروق بين الروايات، وبيان ما تضمنه من أسرار ودلالات.

أولا: الروايات الواردة في صحيح البخاري

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدِي " (٤٤)

وفي رواية أخرى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم " أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ الْبَارِحَةَ إِذْ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ حَتَّى وُضِعَتْ فِي يَدِي ".(٤٥)

---

(٤٣) المصدر السابق: ١٢٨ .

(٤٤) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، رقم الحديث: ٢٩٧٧

(٤٥) صحيح البخاري: كتاب التعبير، باب رؤيا الليل، رقم الحديث: ٦٩٩٨ .

وفي رواية أخرى، اَنَّ اَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ " بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا اَنَا نَائِمٌ اُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الاَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدِي ".(٤٦)

وفي رواية أخرى : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ " بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدِي ".(٤٧)

ثانياً: الروايات الوارده في صحيح مسلم

عَنْ اَبِي هُرَيْرَةَ، اَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ " فُضِّلْتُ عَلَى الاَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ اُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَاُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِيَ الاَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا وَاُرْسِلْتُ اِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ " .(٤٨)

وفي رواية أخرى: عَنْ اَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم " بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَبَيْنَا اَنَا نَائِمٌ اُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الاَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدَىَّ "(٤٩)

وفي رواية أخرى: عَنْ اَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم اَنَّهُ قَالَ " نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى الْعَدُوِّ وَاُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَبَيْنَمَا اَنَا نَائِمٌ اُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الاَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدَىَّ "(٥٠)

---

(٤٦) صحيح البخاري: كتاب التعبير، باب: المفاتيح في اليد، رقم الحديث: ٧٠١٣ .

(٤٧) صحيح البخاري: كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول النبي: بُعثتُ بجوامع الكلم، رقم الحديث: ٧٢٧٣ .

(٤٨) صحيح مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث: ٥ ـ ٥٢٣ .

(٤٩) صحيح مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث: ٦ ـ ٥٢٣ .

(٥٠) صحيح مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث: ٧ ـ ٥٢٣ .

وفي رواية أخرى: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم " نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُوتِيتُ جَوَامِعِ الْكَلِمِ ". [٥١]

ثالثاً: الروايات الواردة في سنن النسائي

عَنْ اَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم " بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَبَيْنَا اَنَا نَائِمٌ اُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الاَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدَىَّ"[٥٢]

رابعاً: الروايات الواردة في سنن الترمذي

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: قَالَ " فُضِّلْتُ عَلَى الاَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ أُعْطِيتُ جَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِيَ الاَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا وَأُرْسِلْتُ اِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ "[٥٣]

خامساً: الروايات الواردة في مسند الإمام أحمد

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُوتِيتُ جَوَامِعِ الْكَلِمِ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا.[٥٤]

وفي رواية أخرى: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُعْطِيتُ جَوَامِعِ الْكَلَامِ وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ جِيءَ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدَيَّ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ لَقَدْ ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنْتُمْ تَنْتَثِلُونَهَا.[٥٥]

---

(٥١) صحيح مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث: ٨ . ٥٢٣ .

(٥٢) سنن النسائي، كتاب: الجهاد، باب: وجوب الجهاد، رقم الحديث: ٣٠٨٩ .

(٥٣) الجامع الكبير، كتاب السير، باب: ما جاء في الغنيمة، رقم الحديث: ١٥٥٣ .

(٥٤) مسند الإمام أحمد، رقم الحديث: ٧٠٩٦

(٥٥) مسند الإمام أحمد، رقم الحديث: ٧٣١٢

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ قِيلَ مَا هُنَّ أَيْ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى قَصْرًا فَأَكْمَلَ بِنَاءَهُ وَأَحْسَنَ بُنْيَانَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ فَنَظَرَ النَّاسُ إِلَى الْقَصْرِ فَقَالُوا مَا أَحْسَنَ بُنْيَانَ هَذَا الْقَصْرِ لَوْ تَمَّتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ أَلَا فَكُنْتُ أَنَا اللَّبِنَةَ أَلَا فَكُنْتُ أَنَا اللَّبِنَةَ.[٥٦]

وثمة روايات أخرى لا يصح بعضها، ولا يثبت سندها؛ لضعفها، ولذا فقد اقتصرتُ على الصحيح الثابت دون غيرها من الأحاديث الأخرى الضعيفة، ففي الصحيح الثابت غنية عن غيرها، ففيها الكفاية والفصاحة والبلاغة.

الوقفة الثانية: الإشارة إلى مقامات الحديث، وبيان سبب وروده

ومن الوقفات المهمة مع هذا الحديث: الإشارة إلى مقاماته، والنظر — كذلك في سياقه — وبيان سبب وروده، فكثير من روايات هذا الحديث تذكره ابتداء، فكأن رسول الله ﷺ قاله ابتداء دون مناسبة أو حادثة لقوله وروده، وهذا كثير في البيان النبوي، وثمة روايات أخرى للحديث تذكر سبب وروده، وكما أن للآية القرآنية سبباً في النزول، فإن للحديث النبوي سبباً في الورود كذلك، ولا شك أن في الوقوف عند سبب الورود، والإحاطة به أثرا في فهم دلالات النص، ومعرفة سياقاته، والأجواء الأسباب التي قيل فيها النص النبوي.

ومن خير ما أُلف في هذا الباب كتاب: " البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف" للعلامة المحدث السيد إبراهيم بن محمد الشهير بابن حمزة الحسييني (ت ١١٢٠هـ)، وقد ذكر محقق الكتاب كلاماً نفيساً عن أهمية هذا الأمر، يقول في

---

(٥٦) مسند الإمام أحمد، رقم الحديث: ٨٩٦٩

مقدمته : ((فإن الحاجة إلى معرفة أسباب ورود الحديث الشريف لا تقل في قيمتها العلمية، والتشريعية عن أسباب نزول القرآن الكريم، بل هي لها كالتتمة والتكملة، ولا شك عند أهل العلم في أن أسباب الورود طريق قوي في دفع إبهام الموهم، والوقوف على معاني الحديث النبوي الشريف؛ لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب – كما يقول ابن تيمية – رحمه الله – فهي في ذلك تتفق وأسباب النزول في فوائدها الجمة التي لا تخفى على دارس في كتاب الله – تعالى – وسنة رسولهﷺ .

ولما كانت السنة الشريفة هي الوحي المبيِّن للوحي المنزَّل فإن أسباب ورودها من هاهنا تتصل بأسباب نزوله، وتعضدها، وتستمد منها، وتقوم من الحديث مقامها من القرآن الكريم في إزالة الإشكال، وفهم المعنى المراد، ومعرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، أو تخصيص الحكم به ... وغير ذلك من الفوائد، وتجعل هذا العلم العزيز من أجل علوم هذا الدين الحنيف، حتى عدَّها بعضهم من القربات التي تُلتمس بها مرضاة الله – عزَّ وجل –)).[٥٧]

ومما جاء في سبب ورود هذا الحديث أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – " مرَّ برجل يقرأ كتاباً من التوراة، فذكر للنبيﷺ، فقال: إنما بُعثتُ فاتحاً وخاتماً، وأُعطيتُ جوامع الكلم وفواتحه واختُصر لي الحديث اختصارا".[٥٨]

وثمة رواية أخرى عن الإمام أحمد تضمنت الإشارة إلى الأجواء التي قيل فيها الحديث، خرَّج الإمام أحمد من حديث عمرو بن العاص، قال: خرج علينا رسول

---

(٥٧) البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف: ١ .

(٥٨) خرَّجه الدار قطني في السنن:١٤٤/٤.

الله يوماً كالمودع فقال: أنا محمد النبي الأمي، قال ذلك ثلاث مرات، ولا نبي بعدي، أُوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه ...[٥٩]

ولي بعض الوقفات مع هاتين الروايتين، ففي الحديث الأول إشارة إلى أن النبي ﷺ قال الحديث رداً على من قرأ شيئاً من التوراة، فكأن النبيﷺ غضب من ذلك، وقد عبَّر عن هذا الغضب بقوله " إنما بُعثتُ فاتحاً وخاتماً، وأُعطيتُ جوامع الكلم وفواتحه واختُصر لي الحديث اختصارا"، فإذا كان – عليه الصلاة والسلام – بهذا المنطق البليغ، وبهذه الخصائص التي اختصه الله بها على سائر الأنبياء جميعاً – عليهم أفضل السلام، وأتم التسليم – فضلاً عن القرآن الذي أُنزل عليه، فإذا كان الأمر كلك فما أوتيه – عليه الصلاة والسلام – ، وما بُعث به فيه الغنية والكفاية، فما الحاجة – والحالة هذه – إلى النظر في التوراة، والرجوع إليها؟! ولم يكن غضب النبيﷺ زجراً وتأنيباً، بل أرشد إلى ما جاء به، وما تميز فيه، وهو كونه مبعوثاً إلى الأولين و الآخرين فاتحاً وخاتماً، وأنه مؤيد من ربه بمنطقه بأن أجرى الله على لسانه جوامع الكلم وفواتحه، وحسبك بهذا الأمر مزية له وفخراً ﷺ، ليس هذا فحسب، بل إنَّ القول ليُطوى على لسانه، فتُختصر له العبارات، وتسهل عليه الألفاظ، وتُجمع له المعاني الكثيرة بأوجز قول، وأقل عبارة، وهذا من سمات بلاغته – عليه الصلاة والسلام – ومظهر من مظاهر فصاحته، وشدة بيانه.

وأما الحديث الثاني: فقد تضمن الدلالة نفسها، وأشار إليها، ولكن المناسبة التي قيل فيها قد تغيرت، والدافع فيها غير الأولى، فكأن قوله – عليه الصلاة والسلام – " أُوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه..." من الوصايا الكبرى التي يريدﷺ تذكير الأمة بها، وإعلامها بها؛ لتظل عالقة في بالها، حاضرة في ذهنها، فهي من الأمور

---

(٥٩) مسند الإمام أحمد: ١٧٢/٢ .

الجسام، والقضايا الكبرى التي يذكِّر الأمة بها في آخر حياته، يقول ذلك لهم في أيامه الأخيرة لحظة توديعه لهم.

وفي هذا إشارة إلى أهمية هذا الأمر، وعظيم مكانته وقدره، ولفت لهذه الأمة إلى ما تميز به رسولها؛ ليعظم قدره في النفوس، وليعظم قدر موروثه وسنته القولية والفعلية في نفوسهم؛ وليزدادوا تمسكاً بها، والعمل بما جاء فيها، كيف لا وقد تخير لهم من القول جوامعه وفواتحه وخواتمه؛ لتكون لهم هداية ونبراساً في حياتها وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومن هنا جاءت الإشارة إلى أنه نبي مرسل لها، وأنه لا نبي بعده، فهو خاتم الأنبياء، وكذلك رسالته، وكذلك بيانه ومنطقه، فكما أرسل لجميع الثقلين، فكذلك هو – عليه الصلاة والسلام – أُوتي جوامع الكلم، كما أنه خاتم النبيين فقد أُوتي – كذلك – خواتم الكلم وفواتحه، ومن هنا نرى أن منطقه – عليه الصلاة والسلام – متوافق مع مكانته ومنزلته بين الأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام.

الوقفة الثالثة: وقفة مع إسناد الفعل إلى ما لم يُسمَّ فاعله في قوله " بُعثت"، وفي رواية أخرى " أُعطيتُ"، وفي رواية أخرى " أُوتيت":

فمع تعدد روايات هذا الحديث إلا أن الفعل فيها لزم صورة واحدة، فلم يأت الفعل في الروايات جميعاً مبنياً للمعلوم، بل جاء فيها جميعاً مسنداً إلى مالم يُسمَّ فاعله، وفي ذلك دلالة يحسن الوقوف معها، والإشارة إليها، فلا يخفى أن الفاعل في الروايات كلها هو الله – سبحانه وتعالى - ، فهو الذي آتاه، وهو الذي بعثه، وهو الذي أعطاه، ولم يكن الغرض من حذف الفاعل هنا: العلم به، بل ثمة سرٌّ بلاغي كامن في طيات هذا التعبير، فقد جاء الفعل مسنداً إلى مالم يُسمَّ فاعله؛ للإشارة إليه، والتنبيه عليه، ففي هذا الإسناد إشارة إلى أن هذا البيان الذي أُعطيه – عليه الصلاة

والسلام - ، وآتاه الله إياه إنما هو محض تفضل منه — سبحانه — على رسوله، وأنها منحة ربانية، خصَّه بها، وتفضَّل بها عليه، فقد كان فضله — سبحانه — على رسوله عظيماً، وهذه من إحدى تلك الفضائل وأجلها، بأن أجرى هذا البيان على لسانه، فقد علَّمه مالم يعلم، وجعل منطقه وحياً يوحى، فكان إمام البلغاء، فقد بزَّ بمنطقه كل بليغ وفصيح.

وهذه حقيقة معلومة ومقررة، وقد أشار العلماء إليها وأكدوها قديماً وحديثاً لدى حديثهم عن منطقه — عليه الصلاة والسلام - ، وبيان سبب علوه، وعظيم فصاحته، وللرافعي حديث طويل في الإشارة إلى هذا المعنى، والتأكيد عليه، يقول _ بعد أن تحدث عن بلاغته — عليه الصلاة والسلام - ، وبعد الإشادة بها، والتمثيل لها، يقول: ⟪وهذا ضرب من التصرف بالكلام في أخلاق النفوس الباطنة التي تذعن لها النفوس، وتتصرف معها، وقلما يستحكم لامرئ إلا بتأييد من الله، وتمكين من اليقين والحجة، فهو على حقيقته مما لا تعين عليه الدربة والمزاولة إلا شيئاً يسيراً لا تستوفى هذه الحقيقة، ولا يمكن أن تجعله المزاولة فيمن ليس من أهله كما هو في أهله، ولأمر ما قال أفصح العرب — عليه الصلاة والسلام - : "أُعطيت جوامع الكلم"، وفي رواية "أوتيت"، وكان يتحدث في ذلك بنعمة الله عليه، فما هو اكتساب ولا تمرين، ولا هو أثر من أثرهما في التفكير والاعتبار، ولا هو غاية من غايات هذين في الصنعة والوضع، إنما هو "إعطاء، وإيتاء" فمن لم يُعط لم يأخذ، ومن لم يأخذ لم يكن له من ذلك كائن، ولم تنفعه منه نافعة، ولاجتماع تلك الثلاثة في كلامه، وبناء بعضها على بعض سلم هذا الكلم العظيم من التعقيد والعي والخطل والانتشار، وسلمت وجوهه من الاستعانة بما لا حقيقة له من أصول البلاغة⟫.[٦٠]

---

(٦٠) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ٣٣٩ .

وقد أشار إلى هذه الحقيقة في مقام آخر، وأكدها بقوله: ((ولا نعلم أن هذه الفصاحة قد كانت له – عليه الصلاة والسلام – إلا توفيقاً من الله وتوقيفاً، إذ بعثه للعرب وهم قوم يقادون من ألسنتهم، ولهم المقامات المشهورة في البيان والفصاحة، ثم هم في ذلك على تفاوت مابين طبقاتهم في اللغات، وعلى اختلاف مواطنهم، فمنهم الفصيح والأفصح... فكان الرسول ﷺ يعلم ذلك كله على حقه، كأنما تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها، وتبادره بحقائقها، فيخاطب كل قوم بلحنهم، وعلى مذهبهم، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطاباً، وأسدهم لفظاً، وأبينهم عبارة، ولم يُعرف ذلك لغيره من العرب)).[٦١]

ولذا فإن من ينظر في منطقه – عليه الصلاة والسلام – تأملا وتدبراً لا يخالجة شك في أنها منحة ربانية، ومحض فضل تفضل بها ربه عليه، أمده بها، وخصه عن سائر الخلق بهذه الفصاحة، وبهذا البيان، وقد أقرَّ – عليه الصلاة والسلام – بهذا الفضل، وفخر به، وأشار إليها في كونها محض تفضل منَّ بها ربه عليه، ومنحها إياه، فقد((عبَّر عن هذه المنحة الإلهية رسول الله ﷺ بقوله " أُعطيت جوامع الكلم"، وفي رواية أخرى " أوتيت" بالبناء للمجهول، مما يدل دلالة قاطعة على أن البيان الجامع الذي أُوتيه – عليه الصلاة والسلام – كان منحة إلهية، وهدية ربانية، يصدق عليها قوله ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[٦٢]، إذ إن وقوفه –

---

(٦١) تاريخ آداب العرب: ٢٩٨/٢، مصطفى صادق الرافعي، مطبعة الاستقامة، مصر، ط: الثانية، ١٣٥٩هـ . .

(٦٢) النساء: ١١٣ .

عليه الصلاة والسلام – على أسرار اللغة وغوامضها، وإدراكه لحقائقها ودقائقها أمر لا بد منه حتى يتم البلاغ عن الله، والبيان للناس». (٦٣)

فإذا كان هذا البيان منحة ربانية، وهبة إلهية، فلا غرو أن يكون بهذه المنزلة، وبتلك المكانة، وأن يبلغ الغاية من البيان، وأن يبلغ ذروته، ويتربع على سنامه، ولذا حظي هذا البيان بالإشادة والإشارة من البلاغيين قديماً وحديثاً، ومهما كُتب وقيل فسيظل نزراً يسيراً في الحديث عن بيانه، وما أُعطيه وبُعث به من الفصاحة والبلاغة، كيف وقد أوتي مفاتيح الكلم وخواتمه وجوامعه.

ومن الإشارات المتقدمة في ذلك قول الزمخشري في بلاغة المصطفى – عليه الصلاة والسلام – : «ثم إن هذا البيان العربي كأن الله – عزَّتْ قدرته – مخضه، وألقى زبدته على لسان محمد – عليه أفضل صلاة، وأوفر سلام، فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفكك الرحل، وما من مِصْقِع يناهزه إلا رجع فارغ السجل، وما قُرن بمنطقه منطق إلا كان البرذَون مع الحصان المُطَهَّم، ولا وقع في كلامه شيء في كلام الناس إلا أشبه الوضح في نُقْبَة الأدهم، قال – عليه الصلاة والسلام – : أُوتيت جوامع الكلم». (٦٤)

وللجاحظ في هذا الباب كلام بليغ في الإشادة ببيانه – عليه الصلاة والسلام –، وقد ضمَّنه الإشارة إلى أن منطقه ﷺ محض تفضل من ربه عليه، ومنحة إلهية، مدَّه بها، وأجراه على لسانه، يقول في وصف منطقه – عليه الصلاة والسلام – : «وهو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه، وكثرت معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف...

(٦٣) أضواء على البلاغة النبوية: ٥٥، أ.د إبراهيم طه الجعلي .

(٦٤) الفائق في غريب الحديث: ٩/١، ، لجار الله محمود الزمخشري .

واستُعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويُسِّر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشَّاه بالقبول، وجمع له مابين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذُّ الخطب الطوال بالكلم القصار... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعذب وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين فحوى من كلامه ﷺ كثيراً)).[٦٥]

الوقفة الرابعة: مع دلالات لفظتي" أُعطيتُ" ولفظة " أوتيتُ"، في هذا الحديث، وبيان الفروق بينهما

وردت لفظة " أُعطيت" في أكثر روايات هذا الحديث، فقد روى البخاري هذا الحديث في أربعة مواضع كلها بلفظة " أُعطيت"، ولمسلم أربعة روايات – كذلك – لهذا الحديث، روايتان بلفظة " أُعطيت"، ورواية بلفظة " أُوتيت"، ورواية أخرى بلفظة " بُعثتُ"، وقد وردت – كذلك – لفظة " أُعطيت" عند الترمذي والنسائي دون سواهما، ولأحمد روايتان: أحدهما بلفظة " أُعطيت"، والأخرى بلفظة " أُوتيت".

ولذا فإن المتأمل في هذه الروايات يجد أن الغلبة فيها للفظة " أُعطيت"، فما دلالة هذه اللفظة؟ وهل ثمة فرق بينها وبين لفظة " أُوتيت"؟

---

(٦٥) البيان والتبين: ٢/ ١٧، لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ،

يفسر بعض أصحاب المعجمات الإيتاء بالإعطاء، فاللفظتان عندهم من الترادف، ومن هؤلاء: ابن فارس في معجمه(٦٦)، وكذلك ابن منظور(٦٧)، وصاحب المفردات(٦٨)، وغيرهم.

وثمة من يرى أن بين اللفظتين فرقاً، وهذا هو مقتضى الدقة في التعبير عن المعاني في اللغة العربية، فما بالك في أعلى بيانها البشري في كلام رسول الله ﷺ؟! إذ كيف يكون معنى هاتين اللفظين متفقاً، والكلمتان مختلفتان أصلاً واشتقاقاً؟! مما يؤدي معه إلى اختصاص كل لفظة منهما بدلالة خاصة، وبمعنى معين، مما يؤكد أن لكل واحدة منهما من الدلالة والإيحاء ماليس في الأخرى.

وقد أشار إلى هذه الحقيقة وأكدها ابن الأنباري في كتابه " الأضداد" حين حكى قول ابن الأعرابي «كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد، في كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به، وربما غمض علينا فلم نلزم العرب جهله».(٦٩)

ولذا فقد تنبه كثير من العلماء إلى مابين هاتين اللفظتين من فروق ودلالات، ومن ثم أشاروا إليها وبينوها، ومن ذلك ما يفرده بعض العلماء في مصنفاتهم فصولاً تحت عنوان (ألفاظ يُظن بها الترادف وليست منه)، ويذكرون من هذه الألفاظ: لفظتي: الإيتاء والإعطاء، ثم يذكرون ما بينهما من فروق.(٧٠)

---

(٦٦) انظر: مادة: أتي، معجم مقايس اللغة.

(٦٧) انظر: مادة: أتي، لسان العرب .

(٦٨) انظر: مادة: أتي، مفردات ألفاظ.

(٦٩) الأضداد: ٧، لابن الأنباري .

(٧٠) ومن هؤلاء: ١ . الزركشي فقد ذكر ذلك في كتابه " البرهان" فصلاً بعنوان: ألفاظ يُظن بها الترادف وليست منه: ٧٨/٤.

وقد نقل السيوطي كلاماً عن الخويَليّ في بيان الفروق بين هاتين اللفظتين، فقد تأمل دلالات كل واحدة منهما، ونظر في استعمال القرآن لهما، فقال - بعد طول تأمل، وإنعام نظر- : ((ظهر لي أن بينهما فرقاً ينبئ عن بلاغة كتاب الله))(٧١)، ثم شرع في بيان مابينهما من فروق.

وممن وقف مع هاتين اللفظتين وقفة تأمل وتدبر لدلالة كل واحدة منهما، والنظر في سياقهما من خلال ورودهما في كتاب الله د. محمد نور الدين المنجد، فخرج بعد طول تأمل ونظر بعدد من الفروق بينهما، ومن أبرزها ما يأتي:

١- أن الإعطاء دليل على التملك، وليس ذلك في الإيتاء، يدل على ذلك قوله – تعالى – ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ (٧٢)، فليس في "الإعطاء" مشاركة الآخرين له فيه، بخلاف "الإيتاء"؛ فإن فيه مشاركة دون التملك، يدل على ذلك قوله – تعالى – ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ (٧٣)، فإن القرآن ونفعه وأثره ليس مقصوراً على رسول الله ﷺ، بل هو له ولأمته جميعاً. (٧٤)

ومما يؤكد هذا المعنى ويقرره: أن أكثر روايات الحديث جاءت بلفظة "أُعطيت"، إشارة إلى هذا المعنى؛ لكون ذلك الأمر خاصية اختُص بها رسول الله ﷺ دون سائر الخلق أجمعين، يدل على هذه الخصوصية قوله ﷺ في الحديث الذي رواه

= ٢ . السيوطي، ذكر ذلك في كتابه " معترك الأقران" بعنوان: ألفاظ يُظن بها الترادف وليست منه: ٤٨٥/٣.

٣ . الدكتور محمد الشايع في كتابه " الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، ذكر فصلا بعنوان: دراسة أمثلة من القرآن ظاهرها الترادف: ٢١٣، وغيرها .

(٧١) الإتقان في علوم القرآن: ٣٠٩/٢، للسيوطي .

(٧٢) الكوثر: ١ .

(٧٣) الحجر: ٨٧ .

(٧٤) انظر: الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق: ١٥٢، للدكتور محمد نور الدين المنجد.

مسلم عَنْ اَبِي هُرَيْرَةَ، اَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ " فُضِّلْتُ عَلَى الاَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ اُعْطِيتُ جَوَامِعِ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَاُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِيَ الاَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا وَأُرْسِلْتُ اِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ "[٧٥]، يؤكد ذلك – أيضاً – أن اللفظة التي جاءت في هذا الحديث لفظة " أُعطيت"، دون لفظة " أُوتيت"، إشارة إلى هذه الدلالة وتأكيد عليها.

ومن الفروق - أيضاً - : ((أن "الإعطاء" يكون صلة، ومنحة عن حب ورضا، دليلنا على ذلك قوله – تعالى - : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾[٧٦]، وقوله ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[٧٧]، وقوله ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾[٧٨]، والعطاء في هذه الآيات ابتداء فضل من الخالق إلى المخلوقين، ولا يخفى مافي هذه الآيات من معنى المنحة والرضا على المعطَى... أما " الإيتاء" فأعمُّ من " الإعطاء"؛ لأنه يكون عن رضا النفس، أو بعد إكراهها، مثال الرضا قوله – تعالى –﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ﴾[٧٩]، وكذلك قوله ﴿ وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾[٨٠]... ومعنى الرضا في هذه الآيات لا يحتاج إلى بيان، أما مثال الإكراه فقوله – تعالى –: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾[٨١]، ففيه مغالبة النفس

---

(٧٥) صحيح مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث: ٥٢٣ .

(٧٦) الكوثر: ١ .

(٧٧) طه: ٥٠ .

(٧٨) النبأ: ٣٦ .

(٧٩) النمل: ٣٧ .

(٨٠) هود: ٢٨ .

(٨١) البقرة: ١٧٧ .

وإكراهها على تنفيذ ما أُمرتْ به ، ولأنه إيتاء لم تجد النفس به سماحة ربما حدَّثت صاحبها باسترجاع ما آتت)). [٨٢]

ومن يمعن النظر في هذه الفروق يجد أنها تتماشى مع روايات حديث " أعطيت جوامع الكلم" ، ولا غرو في ذلك فإن فيها معنى الهبة والمنحة النابعة عن الحب والرضا ، وكذلك الأمر لرسول الله ﷺ ، فقد منحه ربه وخصه بها إمارة حب ورضا ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم.

ثم ذكر الدكتور محمد نور الدين المنجد خلاصة هذه الفروق وأجملها في قوله :
《والذي نخلص إليه أن بين " الإيتاء" و" الإعطاء" فروقاً خفية ، لا تكاد تظهر إلا لمتأمل ، وهذه الفروق ينظمها إطار من خصوص " الإعطاء" وعموم " الإيتاء" ؛ ذلك أن "الإعطاء" تمليك عن سماحة نفس ، ولا يكون ذلك إلا في الخير ، ولذلك لم يرد الأمر به في القرآن الكريم ، ولم يكن محلاً للبلوى ، ثم إنه يكون مرة ولا يتكرر ، أما " الإيتاء" فيكون تمليكاً وغير تمليك ، ويستخدم مع رضا النفس وسخطها ، كما يُستخدم في الخير والشر... وهذه الازدواجية في " الإيتاء" مقابل تلك الأحادية في " الإعطاء" تعزز لدينا القول بعموم الأول ، وخصوص الثاني ، ولا يصح في رأينا بعد هذه الفروق التي وجدناها بين اللفظين في كتاب الله أن يقال بترادفهما》.[٨٣]

كما أن في لفظة " الإعطاء" زيادة في هذا العطاء إلى أن يبلغ المعطَى غايته وذروته ، وإلى أن يرضى عنه كل الرضا[٨٤] ، وهذه الدلالة تتوافق مع مجيء لفظة " أُعطيت" في روايات الحديث كلها ، فإن فيها إشارة إلى أن العطاء قد بلغ غايته وذروته ،

---

(٨٢) الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق: ١٥٣، للدكتور محمد نور الدين المنجد .
(٨٣) الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق: ١٥٧، للدكتور محمد نور الدين المنجد .
(٨٤) انظر: ظاهرة الترادف في ضوء التفسير البياني للقرآن الكريم، ٢٣، للدكتور طالب محمد الزوبعي .

وأن رسـول الله ﷺ قـد رضـي عنـه كـل الرضـا ، ولا أدل علـى ذلـك مـن إشـارته إليـه ، وافتخاره به ، وصدق الله حين قال : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾.[٨٥]

ومـع مـابين هـاتين اللفظـتين مـن فـروق إلا أن بينهمـا تقاربـاً والتقـاء ، ولـذا فقـد وردت كلا اللفظتين في الحـديث ، مـع غلبـة لفظـة " أُعطيـت" ؛ لما تـضمنته مـن دلالات وإيحاءات ، ليست في الأخرى ، كما سبق بيانه ، ومن هنا نرى أن منطقه – عليه الصلاة والسلام – جاء متوافقاً مع دلالة هذه الألفـاظ ، ومـع اسـتخدام القـرآن لهـمـا ، ممـا يـدل على أن منطق رسول الله ﷺ وحي يوحى ، أوحاه إليه ربه ، وأجراه على لسانه.

ومما يحسن الوقـوف معـه ونحـن ننظـر في ألفـاظ روايـات هـذا الحـديث أن جميـع الروايـات وردت بــ "جوامـع الكلـم" ، ماعـدا روايـة واحـدة عنـد البخـاري وردت بـ : "مفاتيح الكلم" ، ويبدو لي أن بينهما توافقاً وتماثلاً ، فمـن أُوتـي جوامـع الكلـم فقـد أُوتي فواتحه ، ومن كان بيده مفاتيح الكلام فسيقوده ذلك إلى جوامعه.

وقد سبق بيان معنـى " جوامـع الكلـم" في المبحـث الـسابق ، ولابـن الأثـير إشـارة رائعة في تعريف " مفاتيح الكلم" التي اختُص بها رسـول الله ﷺ ، يقـول : ⟪أخـبر ﷺ أنـه أوتي مفاتيح الكلم⟫.[٨٦] ، ثم بيِّن المراد بها في قوله : ⟪وهو ما ييسر الله لـه مـن البلاغـة والفـصاحة ، والوصـول إلى غـوامض المعـاني ، وبـدائع الحكـم ، ومحاسـن العبـارات والألفاظ التي أُغلقت على غيره وتعذرت ، ومن كان في يده مفاتيح شيء مخزون سـهل عليه الوصول إليه⟫.[٨٧]

---

(٨٥) الضحى: ٥ .

(٨٦) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤٠٧/٣، لمجد الدين ابن الأثير.

(٨٧) المصدر السابق: ٤٠٧/٣ .

وفي قوله هذا تأكيد لما سبق قوله من أن مفاتيح الكلم سبب لجوامعه ، فإذا سهل عليه الوصول إلى كل معنى ، وإذا ملك الأداة للوصول لغوامض المعاني التي تعذرت علي غيره فإذا تمكن من ذلك تمكن من جوامع الكلم ، وتحكم بها.

وثمة وقفة أخرى مع لفظة وردت في روايات الحديث ، يحسن الوقوف معها ، وهي لفظة "بُعثتُ" وقد وردت هذه اللفظة في ثلاث روايات عند البخاري ، وفي رواية أخرى عند مسلم ، وعند النسائي كذلك ، وفي هذه اللفظة إشارة واضحة وصريحة أن هذه الصفة التي امتلكها رسول اللهﷺ ، وافتخر بها أنها من متممات الدعوة ، ومن دلائل النبوة ، ومن الصفات التي ينبغي توافرها فيه – عليه الصلاة والسلام – ؛ حتى يقوم بدعوة ربه على خير وجه ، كما أن فيها إشارة إلى أنها منحة ربانية ، خصه الله بها ، وميزه على غيره من الأنبياء ، ومن الناس أجمعين ، وكأن بعثته ﷺ ، وكأن قيامه بأعباء الدعوة وتبليغها لا تكمل ولا تحسن إلا بهذه الصفة ، ومن هنا أعطاه ربه وآتاه وبعثه بجوامع الكلم.

الوقفة الخامسة: مع افتخاره – عليه الصلاة والسلام – بمنطقه، وأنه أوتي جوامع الكلم، ودلالات هذا الأمر

خصَّ الله رسوله محمداً ﷺ بكثير من الخصائص التي تميزه عن غيره ، وتفضله على الناس أجمعين ، وهذا أمر ظاهر للعيان ، ولا يختلف عليه اثنان ، وما أكثر الكتب التي أُلفت قديماً وحديثاً في خصائصه – عليه الصلاة والسلام – ، وبيان شمائله ، ومع ما خُصَّ به رسول اللهﷺ من الخصائص فقد كان أكثر الناس تواضعاً ، وأقل الناس حديثاً عن نفسه ، ومدحاً لها ، بيد أنه في هذا الحديث افتخر بنفسه ، وأشاد بمنطقه ، وذكر ما خصه الله به من المحاسن و الفضائل التي امتاز بها عن سواه ، وفضُل بها على سائر الأنبياء ، فضلاً عن الخلق أجمعين.

وحين ننظر في هذا الأمر الذي افتخر فيه رسول الله ﷺ نجد أنه أمر عظيم، ومن الأهمية بمكان، كما أنه من متممات النبوة، ودعامة من دعائم الرسالة؛ حتى يُبلِّغ رسالة ربه على أكمل وجه وأحسنه، كما أنه لم يحقق هذه الصفة من تلقاء نفسه، ولم ينسبها إليه، بل ردَّ الفضل لأهله، واعترف بمنة الله وفضله عليه، وأنه منحها إياه، ورزقه إياها، وفضَّله بها، دلَّ على ذلك مجيء هذه الألفاظ " أُعطيت، أوتيت، بُعثت" في روايات الحديث كلها مسندة إلى مالم يُسم فاعله.

كما أن في هذا الافتخار، وذكر هذا الامتنان إشارة إلى عظم البيان، ومكانة هذا اللسان في الدعوة إلى الله، فمن أهم الوسائل التي ينبغي للداعي أن يتسلح بها، ويتمكن منها: الفصاحة والبلاغة، وله في رسول الله ﷺ أسوة وقدوة، وليحي بن حمزة العلوي كلام صائب في الإشارة إلى هذا المعنى، يقول - في معرض حديثه عن أهمية البيان وثمرته - : «إن الرسول – عليه الصلاة والسلام – مع ما أعطاه الله من العلوم الدينية، وخصه بالحكم والآداب الدنيوية فلم يفتخر بشيء من ذلك، فلم يقل أنا أفقه الناس، ولا أنا أعلم الخلق بالحساب والطب، بل افتخر بما أعطاه الله من علم الفصاحة والبلاغة، فقال: " أنا أفصح من نطق الضاد"، وقال: " أوتيت خمساً لم يُعطهن قبلي أحد، كان كل نبي يُبعث إلى قومه، وبُعثتُ أنا إلى كل أحمر وأسود، وأُحلت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، ونُصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأوتيت جوامع الكلم"».[٨٨]

وثمة إشارة مهمة ونحن نتحدث عن افتخار رسول الله ﷺ بمنطقه يحسن الوقوف معها، والإشارة إليها وبيانها، وهي أن هذا الحديث الذي معنا - الذي هو محور هذا

---

(٨٨) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ١٨، ليحي بن حمزة العلوي اليمني .

الدراسة - : أنه الحديث الوحيد الصحيح الثابت في افتخاره ﷺ بمنطقه، وقد سبق تخريجاته من كتب الصحاح والسنن.

وثمة حديث آخر اشتهر بين الناس يفتخر فيه رسول الله ﷺ بفصاحته وبلاغته، وهو ذلك الحديث المنسوب إليه، وهو قوله: " أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش، واسترضعت في بني سعد بن بكر" فإن هذا القول المنسوب إلى رسول الله ﷺ «كثيراً ما يستشهد به المؤلفون، وبخاصة المحدثين منهم، ولكن المحققين من العلماء يؤكدون أنه حديث موضوع».(٨٩)

فهو حديث موضوع وإن كان معناه صحيحاً، فقد أجمع الحفاظ على أنه حديث موضوع، وكذلك الرواية الأخرى: (أنا أفصح من نطق بالضاد، بيد أني من قريش).(٩٠)

الوقفة السادسة: دلالة الامتنان بأنه – عليه الصلاة والسلام – أُعطي جوامع الكلم، وذكرها مع المنن الأخرى وترتيبها

هذا الحديث من الأحاديث القليلة التي افتخر فيها رسول الله ﷺ بنفسه، وبما آتاه الله من الخصائص التي تخصه، وتميزه عن غيره من سائر الأنبياء جميعاً – عليهم الصلاة والسلام - ، ولا يخفى أن في هذا الافتخار إشارة إلى ما منَّ به ربه عليه، وفي هذا الافتخار، وذلك الامتنان إشارة جلية إلى عِظم هذه الخصائص، وعظيم قدر هذه المزايا، يدل على عظمها وجليل قدرها، وبيان شديد أثرها وتأثيرها عليه أن ذُكرتْ هذه الخاصية مع خصائص أخرى عظيمة لها قدرها وشأنها.

---

(٨٩) بلاغة الرسول: ٨، للدكتور علي بن محمد العماري.

(٩٠) انظر: المصدر السابق: ٨ ..

يتضح هذا الأمر بجلاء حين ننظر في الحديث كله، ففي روايات البخاري كلها ذُكر قوله (بُعثتُ بجوامع الكلم) مع أمور عظام، وقضايا جسام، يدل على ذلك قولهﷺ " أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَمَا اَنَا نَائِمٌ الْبَارِحَةَ اِذْ اُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الاَرْضِ حَتَّى وُضِعَتْ فِي يَدِي ".(٩١)

وفي رواية عند مسلم ذُكر هذا الأمر ضمن ستة خصائص تميز بها رسول اللهﷺ، ومنَّ بها ربه عليه، وذلك في قوله ﷺ " فُضِّلْتُ عَلَى الاَنْبِيَاءِ بِستٍّ اُعْطِيتُ جَوَامِعِ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَاُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِيَ الاَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا وَاُرْسِلْتُ اِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ " .(٩٢)

وحين ننظر فيما تضمنه هذا الحديث من الخصائص ندرك عظيم قدرها، وعظيم منزلتها، وعظيم أثرها، فحسب رسول الله ﷺ شرفاً وقدراً أن خُصَّه بأن يُنصر بالرعب، فيلقي الله الرعب والخوف في قلوب أعدائه قبل مسيره إليهم، فيُهزمون قبل اللقاء، فيلقي الله في قلوبهم الوهن والرعب قبل أن يتلاقى الجيشان، ويلتحم الصفان، فما بالك إذا قابلهم، وبدأ في قتالهم، وإنها لخاصية عظيمة خُصَّ بها رسول الله ﷺ .

وأما الخاصية الأخرى التي لا تقل عنها أهمية وقدراً وشأنا أن آتاه الله مفاتيح خزائن الأرض، فوضعها في يديهﷺ، فقد ملك – عليه الصلاة والسلام – الأحمر والأصفر، فقد أعطته الأرض خزائنها، وفتحت له كنوزها، وقد أنفق ذلك كله في سبيل الله، فما أعظمها من هبة، وما أجلها من منحة وخاصية اختُص بها رسول الله ﷺ .

---

(٩١) صحيح البخاري: كتاب التعبير، باب رؤيا الليل، رقم الحديث: ٦٩٩٨ .

(٩٢) صحيح مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث: ٥٢٣ .

وأما في رواية مسلم فقد ذُكرت هذه الخاصية ضمن ست خصائص تميز بها رسول الله ﷺ عن سائر الأنبياء جميعاً، فمن خصائصه: أنه أُحلتْ له الغنائم التي يظفر بها من أعدائه في الحروب، بينما كان السابقون يقدمونها قرباناً إلى الله، فتأتي النار عليها فتحرقها إشارة إلى قبولها، دون أن ينالوا منها شيئاً، ويستمتعوا بها.

كما خُصَّ – عليه الصلاة والسلام – بأن جعل له ربه الأرض مسجداً وطهوراً، يتطهر بها، ومسجداً يصلي عليها، فوق أي أرض، وتحت أي سماء، وقد أرسله ربه إلى الخلق كافة، وكان النبيون قبله يُرسلون إلى أقوامهم فقط، وخُتم به النبيون فلا نبي بعده.

وإن الناظر في هذه الخصائص كلها ليدرك أنها خصائص عظيمة، ومزايا جليلة خُصَّ بها رسول الله ﷺ، يدل على عظمها وعلو قدرها ومكانتها أن فضُل رسول الله ﷺ على الأنبياء بسببها، وقد صرح – عليه الصلاة والسلام – بهذا المعنى، وأشار إليه بقوله (فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ...) فالباء في قوله " بست" تدل على السببية، أي بسببها، وإنَّ ذكر قوله (بُعثتُ بجوامع الكلم) معها إشارة إلى عِظمها، وأنها توازي هذه الخصائص العظيمة، إن لم تفقها، وتتقدم عليها.

وثمة قضية أخرى يحسن الوقوف معها، والإشارة إليها ونحن نتحدث عن ذكر هذه المنة مع المنن الأخرى في هذا الحديث برواياته المتعددة، وهي موقع الامتنان بكونه – عليه الصلاة والسلام – أُعطي جوامع الكلم، وترتيبها مع المنن الأخرى التي ذُكرت في روايات الأحاديث الأخرى، فحين ننظر في روايات البخاري ومسلم كلها نجد أنه – عليه الصلاة والسلام – بدأ بها، وقدَّمها على غيرها، ولا يخفى أثر هذا التقديم ودلالاته وأسراره التي يسعى المتكلم البليغ إلى تحقيقها، فإن للتقديم والتأخير أسراراً بلاغية، ونكتاً بيانية جمة تكمن فيها، وتظهر من خلالها، وقد أشار عبدالقاهر

الجرجاني إلى بعضها في قوله «هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد أن سبب أن راقك ولطف عندك أن قُدم فيه شيء، وحوِّل اللفظ عن مكان إلى مكان».(٩٣)

فهذه هي مكانته، وتلك منزلته، وقد وظف – عليه الصلاة والسلام – هذا الأسلوب أتم توظيف وأبلغه في الدلالة على عظم هذه المنة، وذلك من خلال البدء بها، وتقديمها على غيرها، وحسبك بالتقديم والتأخير إشارة إلى عظمها، وبيان أثرها وتأثيرها، وقد أشار سيبويه إلى دلالة هذا التقديم وأسراره البلاغية في قوله ((كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم)) .(٩٤)

إذن فقد تضمن هذا التقديم الدلالة الواضحة والصريحة أن هذه الخاصية وهي كونه (أُعطي جوامع الكلم) تفوق أهمية ومنزلة الخصائص الأخرى، فلها في نفسه المحل الأعلى، والمقام الرفيع، وإن كانت تلك الخصائص كلها خصائص عظيمة، ومكانتها عالية وسامقة، بيد أن تلك الخصائص مراتب ومنازل، وبعضها يفضل بعضاً، وله من الأثر والدلالات ماليس في الأخرى في تحقيق دعوته، وانتشارها في مشارق الأرض ومغاربها، وفي هذا إشارة صريحة إلى أهمية البلاغة، وشديد أثرها وتأثيرها في النفوس، كما أنها من أهم الخصائص والأسلحة التي ينبغي أن يتسلح بها الداعي؛ ليقوم بالدعوة على أكمل وجه وأحسنه، فالبلاغة ركن ركين، وأصل أصيل في تحقيق الدعوة، والتأثير في الناس.

---

(٩٣) دلائل الإعجاز: ١٠٦، لعبدالقاهر الجرجاني .

(٩٤) الكتاب: ٣٤/١

وثمة رواية أخرى عند مسلم جاء الحديث عن هذه الخاصية في المرتبة الثانية، وذلك في قوله ﷺ " نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى الْعَدُوِّ وَأُوتِيتُ جَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَبَيْنَمَا اَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الاَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدَيَّ "(٩٥)، هذه هي الرواية الوحيدة عند مسلم جاء الحديث فيها عن "جوامع الكلم" في المرتبة الثانية، بخلاف الروايات كلها، وحين نتأمل الذي تقدم نجده قوله " نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى الْعَدُوِّ "، ولا يخفى أهمية هذا الأمر، وعظيم أثره في انتشار الدعوة في أرجاء المعمورة، فالأعداء هم الذين يقفون ضد الدعوة، وهم الذين يعيقون سيرها وانتشارها، فإذا أصابهم الوهن، وامتلأت قلوبهم بالرعب من رسول اللهﷺ فلن تقوم للكفار قائمة، ولن تعلو لهم راية، وسيحقق رسول اللهﷺ غرضه، ويتمكن من دعوته، ومن هنا جاء تقديمها إشارة إلى هذه المعاني كلها، ودلالة عليها، والله أعلم.

وثمة ملحظ آخر استوقفني وأنا أنظر في دلالات هذا الحديث برواياته المتعددة، وله دلالته المهمة، وإشارته البالغة، فقد تضمن الحديث الإشارة إلى أن رسول اللهﷺ قد أوتي مفاتيح الكلم، كما أُوتي – كذلك – مفاتيح خزائن الأرض، فقد ملك رسول اللهﷺ القلوب، فقد أُوتي دلالات الألفاظ، وملك مغاليقها، وقاد أزمتها، يتصرف فيها كما يشاء، فقد ذُللت له البلاغة، ومُهدت له الفصاحة، واختُصر له القول اختصاراً، ولا أدل على ذلك من فخره بأنه ﷺ بُعث بجوامع الكلم، ليس هذا فحسب، فثمة أمر آخر ملك خزائنه ومفاتيحه، فقد أوتي – كذلك – خزائن الأرض أحمرها وأسودها، فقد أخرجت له الأرض أثقالها، ورمت له بكنوزها.

وما أجمل هذا التقابل في المنن والعطاء التي اختُص بها رسول اللهﷺ، فقد أوتي جوامع الكلم، يتصرف في القول كيف يشاء، كما أوتي – كذلك – خزائن

---

(٩٥) صحيح مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث: ٧ . ٥٢٣ .

الأرض، فيتصرف بالأموال والعطايا كيف يشاء، ومن هنا ساد الناس، وبلغت دعوته الآفاق، ودخل الناس في دين الله أفواجاً؛ بسبب هذه المنن والخصائص التي اخُتص بها، وبسببها فضُل على الأنبياء، والناس جميعاً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

الوقفة السابعة: الأسباب التي أدت إلى توافر الإيجاز في منطقه ﷺ

وأخيراً: إن جوامع الكلم وفواتحه وخواتمه التي بُعث بها رسول الله ﷺ، وآتاه الله إياها هي الإيجاز، كما اتضح ذلك من خلال بيان المراد بجوامع الكلم في المبحث الأول، وهو في اصطلاح البلاغيين: أن تكون الألفاظ قليلة، والمعاني كثيرة دون أن يكون في الكلام شيء محذوف.[٩٦]

ولا يخفى مكانة هذا الإيجاز، ومنزلته في البلاغة، وعند البلاغيين، وقد حظي باهتمام كثير من العلماء، وبالإشادة به، والرفع من شأنه، والثناء على من نال حظاً وافراً منه، وقد وردت مقولات كثيرة عن العرب تشيد به، وتؤكد على أهميته وبلاغته، فحسب الإيجاز شأناً وقدراً أن جعلوا البلاغة هي الإيجاز[٩٧]

فقد قيل لبعض الأعراب: «ما البلاغة؟ قال: الإيجاز، قيل: وما الإيجاز؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد».[٩٨]

والإيجاز – كما عرَّفه العلوي – : ((أن تزيد فيه المعاني على الألفاظ وتفوق)).[٩٩]

---

(٩٦) انظر: المثل السائر:٢/٢١٦، و: الإيضاح:١١٦، وغيرهما.

(٩٧) انظر: كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر: ١٧٩، لأبي هلال العسكري، و: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٢٠٢، للدكتور أحمد مطلوب.

(٩٨) الصناعتين: ١٧٩ .

(٩٩) الطراز: ٢٦٢ .

وقد ذكر ابن سنان سبب اهتمام العرب بالإيجاز، وحفاتهم به في قوله: ⟪والأصل في مدح الإيجاز والاختصار في الكلام أن الألفاظ غير مقصودة في أنفسها، وإنما المقصود هو المعاني والأغراض التي احتيج إلى العبارة عنها بالكلام، فصار اللفظ بمنزلة الطريق إلى المعاني التي هي المقصودة، وإذا كان طريقان يوصل كل واحد منهما إلى المقصود على سواء في السهولة، إلا أن أحدهما أقصر وأقرب من الآخر، فلا بد أن يكون المحمود منهما هو أخصرهما، وأقربهما إلى المقصود⟫.[(١٠٠)]

وإن جوامع الكلم وفواتحه تكاد تدل دلالة صريحة على إيجاز القصر، وهو — كما يذكر ابن الأثير - : ⟪الذي لا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها، وفي عدّتها، وهو أعلى طبقات الإيجاز مكاناً، وأعوزها إمكاناً، وإذا وُجد في كلام بعض البلغاء فإنما يُوجد شاذاً نادراً⟫.[(١٠١)]

إذن فهذا هو تعريفه، وتلك مكانته، وذلك ندرة حدوثه ووقوعه، فهو أعزُّ من الكبريت الأحمر، هذا في كلام البلغاء والعلماء، كما يذكر ذلك ابن الأثير، أما في كلام رسول اللهﷺ فيكاد يكون ظاهراً في كلامه كله، فيكاد يكون كلامه كله إيجازاً، ولذا كان أبلغ البلغاء، وأفصح الفصحاء، ومن هنا افتخر ـ عليه الصلاة والسلام — بأنه بُعث بجوامع الكلم.

ولا غرو أن يفخر - عليه الصلاة والسلام — بهذا النوع من الإيجاز؛ لأنه — كما يذكر الزيات — يزيد في دلالة الكلام من طريق الإيحاء؛ لأنه يترك على أطراف

---

(١٠٠) سر الفصاحة: ٢٠٣، لابن سنان الخفاجي.

(١٠١) المثل السائر: ٢/٢٧٥، لابن الأثير .

المعاني ظلالاً خفيفة، يشتغل بها الذهن، ويعمل فيها الخيال؛ حتى تبرز وتتكوَّن وتتسع، ثم تتشعب إلى معانٍ أخرى يتحملها اللفظ».[١٠٢]

إذن فقد تمكن رسول الله ﷺ من أسلوب الإيجاز، وجعله وسيلة طيعة في أداء دعوته، وفي تحقيق أهدافه، ونشر دينه للناس جميعاً، والسؤال: ما الأسباب التي أدت إلى توافر هذا الأسلوب في كلام رسول الله ﷺ؟

يأتي في مقدمة هذه الأسباب: تأثره — عليه الصلاة والسلام — بالقرآن الكريم، فلا يخفى توافر هذا الأسلوب في القرآن الكريم، وبروزه فيه، وكيف لا يتأثر رسول الله ﷺ بالقرآن، وقد نزل عليه، وهو الذي يتلوه آناء الليل، وأطراف النهار، يتلوه حيناً، ويسمعه من غيره حيناً، ومن ثم فقد تطبع بأخلاقه، وجرى أسلوبه على لسانه، فإذا كان الأمر كذلك وهو كذلك «فليس غريباً أن يجتمع ذلك كله لرسول الله ﷺ؛ لأن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وكذلك فإن الذي مكَّن لفصاحته أن تنمو، وتقوى وتشتد أواصرها تأثره بأسلوب القرآن، وذلك أمر طبعي؛ فعلى قلبه المتصل بجلال الله تنزل القرآن».[١٠٣]

ومن هذه الأسباب: أنه — عليه الصلاة والسلام — رجل دعوة، أرسله ربه إلى هذا الأمة بشيراً ونذيراً، وقد كانت الدعوة إلى الله شغله الشاغل، وهمه الأكبر، ودَّ لو دخل الناس جميعاً في دين الله أفواجاً، وقد كان حريصاً على إيصال دعوته للناس كافة بأقرب الطرق، ولذا توافر الإيجاز في كلامه كثيراً.

وكان يعتمد كثيراً على دلالة الحال، وقرينة السياق، مستغنياً بهما عن كثير من الكلمات، وقد كان ذلك منه — عليه الصلاة والسلام — خير توظيف لأسلوب الإيجاز

---

(١٠٢) دفاع عن البلاغة: ٩٩، لأحمد حسن الزيات،.

(١٠٣) التصوير الفني في الحديث النبوي: ٢٢، للدكتور محمد الصباغ .

الذي عُرف به، وافتخر فيه، ومن هنا اجتمع أبلغ أسلوب وأجزله في خير نبي، وآخر رسول – صلى الله عليه وسلم - ، فلا غرابة حينها «أن يختصه الله بأفضل البيان؛ ليبلِّغ دعوته من أقرب السبل؛ لأن الألفاظ طريق للمعاني، فالمعاني هي المقصودة، وإذا كان طريقان يوصلان إلى المقصود على سواء في السهولة إلا أن أحدهما أقصر وأخصر وأقرب كان ذلك الطريق أفضل، ولذلك أُعطي رسول الله ﷺ جوامع الكلم فقال: "أُعطيت جوامع الكلم"، وفي رواية أخرى "أُوتيت"، وكل من اللفظين يدل على اصطفاء الله ذلك الأسلوب لرسوله، وإعطائه إياه، نعمة منه عليه، ولذلك سلم بيانه من العيوب، وكثر فيه هذا النوع من الكلم الجامعة».(١٠٤)

وبعد: فإذا كان رسول الله ﷺ قد أوتي جوامع الكلم، والمراد به: الإيجاز – كما سبق بيانه – ، وإذا كان الإيجاز هو البلاغة، فيكون رسول الله ﷺ قد أوتي البلاغة، وتمكَّن منها، وهي البلاغة العالية، التي قد بلغ غايتها، وتربع على سنامها، فيكون – عليه الصلاة والسلام – أبلغ الناس، وقوله أجمل القول وأفصحه، فلا غرو – والحالة هذه – أن يذكر هذه البلاغة التي أعطاها الله إياها، يفتخر بها.

الخاتمة

وبعد هذا الإبحار الماتع، وبعد هذه الصحبة المباركة لهذا الحديث تصل الرحلة إلى مبتغاها، والبحث إلى غايته، وهي رحلة ممتعة مفيدة تم فيها بيان معنى الحديث، وسبر أغواره، والنظر فيه تأملا وتدبرا للوقوف عند دلالاته، واستنطاق جمله وكلماته، بعد ذلك كله تصل هذه الدراسة إلى خاتمتها، وتقف عند نهايتها، علها أن

(١٠٤) أضواء على البلاغة النبوية: ١٧٥، للدكتور: إبراهيم طه الجعلي .

تكون قد حققت غايتها، وبلغت مبتغاها، وثمة نتائج قد أمكن الاهتداء إليها من خلال هذه الدراسة، ومن أبرزها ما يأتي:

أولا: أن حديث الدراسة هو الحديث الوحيد الصحيح الثابت عن النبيﷺ سنداً في افتخاره بمنطقه، بخلاف الأحاديث المشهورة الأخرى، فهي لا تثبت سنداً وإن صحت معنى.

ثانياً: أن جميع روايات هذا الحديث وردت من خلال أسلوب الخبر في بيان مضمونه، وذكر محتواه، كما جاء الخبر مجرداً من أدوات التوكيد، وفي ذلك دلالة يحسن الإشارة إليها، وهي أن مضمون هذا الحديث حقيقة مقررة، لا تقبل الشك والتردد في قبول مضمونها، بله الإنكار لها، ومن هنا جاءت من خلال هذا الأسلوب الخبري، إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه.

ثالثاً: بيَّن البحث المراد بـ"جوامع الكلم"، وأن ثمة قولين في بيان المراد بها، وأن الراجح في ذلك أن يكون المراد منطقه – عليه الصلاة والسلام – ، وقد ذكرتُ في ثنايا البحث سبب هذا الترجيح.

رابعاً: أن أكثر ألفاظ الحديث وروداً لفظة "أُعطيت" ثم لفظة "بُعثتُ"، بخلاف المتداول المشهور وهي لفظة "أُوتيتُ"، فهي أقلها وروداً.

خامساً: يكاد يكون كلام الرسول – عليه الصلاة والسلام – كله من جوامع الكلم، فقد تميز بذلك، وافتخر به، وقد كان ذلك الأمر تحت نظر العلماء، فأشادوا به، وأشاروا إليه، وألفوا في ذلك الكتب والمؤلفات.

سادساً: أن لروايات الحديث المتعددة أثراً في بيان المعنى وكشفه، وذلك أن هذه الروايات – وإنْ كثرت – يُكمل بعضها بعضاً، كما أنها تتضافر فيما بينها في إبراز المعنى وإيضاحه؛ وذلك أن كل رواية تكشف جزءاً من المعنى، كما قد تكون مبيِّنة

لإحدى الروايات، ومن خلال الروايات كلها، والنظر فيها جميعاً تتبين دلالة هذه الروايات، ومن ثم يكتمل المعنى، ويتضح بجلاء، وذلك محتم علينا أن ننظر في الروايات المتعددة للحديث الواحد، وسبر غور كل رواية، وإنعام النظر فيها للوقوف عند أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية.

وأخيراً: ثمة بعض الأمور المتعلقة بالبلاغة النبوية أوصي بها ونحن نتعامل مع بلاغة الرسولﷺ وننظر في أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية:

أولا: أوصي بعدم الاقتصار على موطن الشاهد في الأسلوب البلاغي، بل لا بد من النظر في السياق الذي ضمَّ ذلك الشاهد؛ وذلك أن له أثراً حميداً في الكشف عن المعنى، والدلالة عليه ولذا فلا ينبغي إغفاله أبداً في الدراسات البلاغية، أو الاقتصار على موطن الشاهد، فإن في هذا الصنيع تجزئة للعمل الواحد، وبتراً لذلك الأسلوب من سياقه الذي ورد فيه.

كما أوصي أن تكون الأحاديث الواردة لدراستها بلاغياً ينبغي أن تكون أحاديث صحيحة وثابتة عن الرسولﷺ، تتجلى أهمية هذه القضية في أننا ننطلق من أحاديث صحيحة نبني عليها قواعدنا، وننطلق من أرض صلبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ومن الخلل العلمي، والخطأ البين أن نتحدث عن البلاغة النبوية من خلال أحاديث ضعيفة، لا يثبت سندها، ولم يصح معناها، ونحن إن فعلنا ذلك فإننا نجني على البلاغة النبوية جناية عظمى، ونسيء إليها إساءة بالغة.

والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات

المصادر والمراجع

[١] *الإتقان في علوم القرآن*، لجلال الدين السيوطي، تقديم وتعليق: د. مصطفى ديب البُغا، دار ابن كثير، بيروت، ط: الثانية: ١٤١٤هـ.

[٢] *الأضداد*، لمحمد بن قاسم الأنباري، تحقيق: محمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١١هـ.

[٣] *أضواء على البلاغة النبوية*، أ.د إبراهيم طه الجعلي، مكتبة الرشد، الرياض، ط: الأولى: ١٤٢٥

[٤] *إعجاز القرآن والبلاغة النبوية*: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط: ٩، ١٣٩٣هـ.

[٥] *الإعجاز والإيجاز*، لأبي منصور الثعالبي، المطبعة العمومية، القاهرة، ط: الأولى: ١٨٧٩م.

[٦] *الإيضاح في علوم البلاغة*، للخطيب القزويني، تحقيق: د. عبدالحميد هنداوي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط: الثالثة: ١٤٢٨هـ.

[٧] *البرهان في علوم القرآن*، للإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث.

[٨] *بلاغة الرسول*، د. علي محمد حسن العماري. دار الأنصار، القاهرة،

[٩] *البيان والتبين*، لأبي عثمان الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الخامسة: ١٤٠٥هـ.

[١٠] *البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف*، لإبراهيم ابن حمزة الحسيني، راجعه وأعد فهارسه: سيف الدين الكاتب، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠١هـ

[١١] *تاريخ آداب العرب*، مصطفى صادق الرافعي، مطبعة الاستقامة، مصر، ط: الثانية، ١٣٥٩هـ.

[١٢] *تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: ١٥٠/٥*، للإمام الحافظ أبي العلاء محمد بن عبدالرحمن المباركفوري، اعتنى به: علي محمد معوض، و عادل أحمد عبدالجواد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٩هـ.

[١٣] *التصوير الفني في الحديث النبوي*، للدكتور محمد الصباغ، المكتب الإسلامي ط: الأولى، ١٤٠٩هـ.

[١٤] *الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق*، د. محمد نور الدين المنجد، دار الفكر، دمشق، ط: السادسة: ١٤١٧هـ.

[١٥] *جامع العلوم والحكم*، للإمام الحافظ أبي الفرج عبدالرحمنبن شهاب الشهير بابي رجب تحقيق شعيب الارناؤوط و إبراهيم برجس مؤسسة الرسالة، بيروت ط: الثامنة: ١٤١٩ هـ

[١٦] *دفاع عن البلاغة*، لأحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة: ١٩٤٥

[١٧] *دلائل الإعجاز*، لعبدالقاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، دار المدني، جدة، ط: الثالثة: ١٤١٣هـ.

[١٨] *زاد المعاد*، لابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الثالثة عشرة: ١٤٠٦هـ.

[١٩] *سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام: ١٦٩/٣* ، للإمام الصنعاني، تحقيق محمد صبحي، دار ابن الجوزي، الدمام، ط: الأولى، ١٤١٨هـ.

[٢٠] *سرُّ الفصاحة،* لابن سنان الخفاجي، تحقيق: على فودة، مكتبة الجانجي، القاهرة، ط: الثانية: ١٤١٤هـ .

[٢١] *سنن أبي داود،* دار الحديث، سوريا، ط: الأولى: ١٣٨٩هـ .

[٢٢] *سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي،* وحاشيته الإمام السندي، صُححت هذه الطبعة وقرئت على الشيخ حسن محمد المسعودي، المدرس بالقسم العالي بالأزهر، المطبعة المصرية بالأزهر، (د — ت) .

[٢٣] *سنن الدار قطني،* دار المعرفة، بيروت، ط: الأولى: ١٤٢٢هـ .

[٢٤] *سنن النسائي الكبرى،* تحقيق عبدالغفار البنداري، وسعد حسين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤١١هـ .

[٢٥] شرح *صحيح البخاري*، ١٤٣/٥ ، لابن بطال، تحقيق أبي تميم ياسر إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ

[٢٦] *شرح صحيح مسلم،* لمحي الدين أبي زكريا يحي بن شرف النووي، راجعه خليل الميس، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى

[٢٧] شعب *الإيمان: ١٦٠/٢ ،* للبيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ .

[٢٨] *الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ٥٦/١ ،* للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي ، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة.

[٢٩] *شمائل الرسول: ٥٢ ،* لابن كثير، تحقيق مصطفى عبدالواحد، مطبعة عيسى البابي، القاهرة، ١٣٨٦هـ .

[٣٠] *صحيح البخاري:* للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول ـ تركيا، ط: ١ ، ١٣٧٤هـ.

[٣١] *صحيح مسلم:* لأبي الحسين مسلم بن حجاج النيسابوري، حقق نصوصه: محمد فؤاد عبدالباقي المكتبة الإسلامية، استانبول، (د ـ ت).

[٣٢] *الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز،* للعلوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ.

[٣٣] *ظاهرة الترادف في ضوء التفسير البياني للقرآن الكريم،* د. طالب محمد الزوبعي، منشورات جامعة قاريونس بنغاري، ط: الأولى: ١٩٩٥م.

[٣٤] *عمدة القاري،* لبدر الدين محمد بن أحمد العيني، نشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ بمصر، ط: ١، ١٣٩٢هـ.

[٣٥] *العمدة في محاسن الشعر وآدابه،* لأبي الحسن علي بن رشيق القيرواني، دار المعرفة، بيروت، ط: الأولى: ١٤٠٨هـ

[٣٦] غريب *الحديث: ١/ ٦٤ ،* لأبي سليمان الخطابي، تحقيق: عبدالكريم إبراهيم العزباوي، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ١٤٠٢هـ.

[٣٧] *الفائق في غريب الحديث،* لجار الله محمود الزمخشري، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤١٧..

[٣٨] *فتح الباري شرح صحيح الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري:* للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر القسطلاني، حققه محمد محب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبدالباقي، المكتبة السلفية، القاهرة، ط: ٤، ١٤٠٨هـ.

[٣٩] *الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم،* الدكتور محمد الشايع مكتبة العبيكانن ط: الأولى: ١٤١٤هـ

[٤٠] *الكتاب*، لسيبويه، تحقيق وشرح: عبدالسلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثالثة: ١٤٠٨هـ .

[٤١] *كتاب الصناعتين*، لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، و على محمد البجاوي، دار الفكر العربي، ط: الثانية.

[٤٢] *لسان العرب*، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثالثة: ١٤١٣هـ .

[٤٣] *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*، لضياء الدين ابن الأثير، قدمه وعلق عليه: د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

[٤٤] *المدخل لدراسة السنة النبوية*، للدكتور. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: الثانية، ١٤١١هـ .

[٤٥] *مسند الإمام أحمد*، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ط: الأولى: ١٤١٩هـ .

[٤٦] *معترك الأقران في إعجاز القرآن*، للسيوطي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤٠٨هـ .

[٤٧] معجم *المصطلحات البلاغية وتطورها*، د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان، ط: الثانية، ١٩٩٦م .

[٤٨] معجم *مقاييس اللغة*، لأبي الحسن بن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارونن دار الجيل، بيروت، ط: الأولى: ١٤١١هـ .

[٤٩] *مفردات ألفاظ القرآن القرآن*، للعلامة الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط: الثانية: ١٤١٨هـ .

[٥٠] *النهاية في غريب الحديث والأثر*، لمجد الدين أبي السعادات المعروف بابن الأثير، تحقيق : طاهر أحمد الزاوي، و محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية بيروت .

[٥١] *نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار: ٣٧٩/٤* ، للإمام الشوكاني، تحقيق طارق عوض الله، دار ابن القيم، الرياض، ط: الأولى: ١٤٢٦هـ

Talk 'Written in Concise Words' Connotations and Secrets Rhetorical

Dr. Abdulaziz saleh alammar
Kingdom of Saudi Arabia
Al-Imam Muhammad bin Saud Islamic University
Department of Rhetoric and criticism

(Received 7/4/1431H.; accepted for publication 10/9/1431H.)

Abstract. Study began with an introduction stating the importance of the subject, and the reasons for his choice, and I point out that recent study, and the focus of research is saying - peace be upon him -: "sent concise arguments, and Nusrat dread, Whilst I was sleeping and I came keys cabinets ground, placing in the hands of "()

According to another report from Abu Hurayrah, the Prophet said: "peace be upon him" was given the keys of speech, and Nusrat horror, and while I was sleeping yesterday came as the keys to the ground until the cabinets and put in my hand. "() Need to examine the rhetoric, and stopovers contemplative; to indicate signs of being overwhelmed, and a statement to be him, indicating at the same time novelty of the subject and his grandmother, and is characterized by, the fact will be Speaking -εthat while the talk about the eloquence of the Messenger peace be upon him - from the area, and distinguish him from eloquence, Asked him by his Lord and his Lord - the Almighty - the conciseness of speech and Fouatha and Joatmh.

The search came Mbgesin: first topic: the title: the meanings of "conciseness of speech", stating you want to, and differences in determined, and that is the correct view, and the reasons weighted. The second topic, it was entitled: contemplative and stops with his interview with "sent concise Kalim," It dawned stand This topic, stating that seven stops are important indications of modern rhetoric and secrets.

And then concluded the study included the seal on the findings that emerged out of this study, and commandments which I recommended at the end of the study. Then appended to the study of sources and bibliographic references that were consulted, and benefit from them in the writing of this research.